ولا احد يتحسس وجود سواه !
الشارع مثل هرج ميدان ـ الباعة السماسرة ـ الابلق ...
والناس : اصنام ،
والناس : رمال ،
رمال في مهب عصف الرياح ..

والثرى ظامىء كاغواري ،
والسماء مكفهرة بلا امطار ..
العالم : مظلم ، عكر ، وعابس ..
والمقاهي صفراء ، وصامتة ،
المقاهي في ناظري ،
تبدو كأشباح المقابر !

- ولد الشاعر د. احسان فؤاد عام ١٩٣٦ في السليمانية.
- نال شهادة الدكتوراه في الادب الكردي من الاتحاد السوفياتي.
- بدأ نشر الشعر منذ عام ١٩٥٣.
- عمل في المجال الصحفي لسنوات عديدة.
- ساهم في تأسيس اتحاد الادباء الاكراد ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠م. وكان نائباً لرئيس الاتحاد.
- ترأس قسم اللغة الكردية بكلية الآداب ـ جامعة بغداد، في بداية سني السبعينات..
- اصدر مجموعته الشعرية الاولى «گولی كێوی ـ الوردة البرية» عام ١٩٨٢.
- نشر العديد من الدراسات الادبية في الصحف الكردية.

قصة كردية

الفخ

أو

القصة منشورة
في العدد ٣٣ من مجلة كاروان

عندما تحيد عن الشارع المقير، تاركاً اياه، آخذاً سمتك جهة اليسار؛ فان طريقاً ترابية رفيعة، ذات تعاريج، تتلقف خطاك حتى تحط بك على مشارف الرابية. إن تلك الطريق، يزدان أديم نحرها ـ صيفاً ـ بالرمال، وبصغار الحصيات من مختلف الاشكال، و الالوان، وهي تستقبل المستطرقين، كانها جوقة موسيقى بايقاعات من الصرير، والصليل. تختلط اثناء الليالي بنباح الكلاب، ونقيق الضفادع المنبعث خلل الغدران. مشكلة كلها سمفونيات في عالم الرائحين الى قريتنا، والغادين منها.

اما شتاءاً فحدث، ولا حرج، تراها، وقد تحولت الى مصدر

قصة : حسن جاف

ترجمة : محمد صابر محمود

للشقاء، والنصب، والى مبعث للآلام، والاوجاع؛ حيث تقطع كل صلة لنا بالمدينة تماماً. إذ ان اطنان الاوحال الناجمة عنها، تلزق عجلات السيارات بالارض كانها العلك اللاصق.

حالما تعتلي متن تلك الرابية، مشرفاً من على قمتها؛ فان قريتنا تتجلى بابهى صورها امام ناظريك عارضة عليك نفسها، بكل ماحباها الله من مفاتن، كانها حورية حسناء اتمت لتوها استحمامها. فالبيوت ترتفع من تحت ناصية الجبل، وهي تشرئب بأعناقها الى السماء، وينبسط من امامها سهل منتظم، يميل لونه الى الخضرة. إذ تتملاه عيناك من اية ناحية كانت وقتما يغفو بين احضان الربيع فانه يتراءى لك بالوان مشربة بالحمرة، حيث تفرش عليه ورود شقائق النعمان بالوانها القانية، بساطاً احمر من اقصاه الى اقصاه. اما ـ على الطرف المقابل لنا فثمة تلة تتطاول برأسها، وهي تستلقي ـ باطمئنان تحت ظل شجرة من اشجار التوت.

فيما مضى من الزمان يوم كنا اطفالاً كنا نصعد فوق قمة تلك التلة، لاقتطاف ثمار التوت. وكان رجال القرية ايضاً يقصدونها بعد الانتهاء من اعمالهم اليومية المرهقة، للترويح عن انفسهم، إذ كانت لهم بمثابة منتدى يقضون فيه الوقت بالاحاديث، والثرثرة. لحد الآن، مازلت اتذكر ذلك اليوم الذي جئتنا فيه. وانني اراك ماثلاً امامي، وكأنني المحك بنفس العين التي رأيتك بها اول مرة. لم اكن لأعلم من تكون؟!. ومن اين اتيت؟!. كل واحد منا ينظر اليك نظرة ملؤها الشك، والريبة!. لقد كنا معذورين. فتىً في مثل هيئتك!، غريب، لم نكن شاهدناه من قبل، ولا كان لنا به سابق عهد بالمعرفة!. ما أتى به هاهنا؟!. مالذي يبغيه من قريتنا؟! ياترى؟!.

ولكن مهلاً اية قرية هذه؟! ربما كنا نطلق عليها هذه التسمية وفاءاً، وعرفاناً بالجميل!، والا فان مجموعة من الدور الخربة، ذات الانقاض المتداعية فوق بعضها البعض، دونما زرع، أو ضرع!، كيف لنا، أن ننعتها بالقرية، او نحسبها في عدادها؟!. رياح الحقد، والضغينة، وصروف الايام والليالي، الغاشمة وتقلباتها، أدالت دولتها، فجعلتها يباباً. لاترى فيها شاغية ولا راغية، ولا تسمع فيها، حتى صوت دجاجة! عوضاً عن كل ذلك، كانت الافاعي، والعقارب تسرح فيها وهي تلغ في دمائنا وترتوي.

مرجتنا المرعة تلك، والمزدانة بالاخضر، والاحمر حال لونها، فاكتست ثوباً اغبر، قبيحاً. غير اننا مع هذا لم نفكر يوماً من الايام في مبارحتها، وان نتركها وراءنا ظهرياً، لنولي بوجوهنا، شطر مكان آخر. كنا نتمنى في قرارتنا لو تعود بفضل معجزة من المعجزات الخارقة كما كانت تلك العروس الحسناء المجلوة، في

غابر الايام. في صبيحة كل يوم كانت الشمس، تطل برأسها من وراء الجبال فتشرع رويداً رويداً تنشر اشعتها الذهبية هنا، وهناك في ثنايا الازقة والدروب من قريتنا؛ الا ان احداً لم يكن ليتململ من فراشه، أو يهب من رقدته، ليستقبلها، ويصيخ السمع لندائها، حتى تنضج جلودهم تحت وقد اشعتها المحرقة.

لقد استبد بهم الكسل، واستمرؤوا طعم الخمول، وكأنهم اصبحوا قرناء، مستأنسين ببعضهم البعض.

كل ليلة وبعد الانتهاء من صلاة العشاء كانوا يجتمعون داخل المسجد. ومع ماهم فيه من مصمصة لفائف التبغ يغرقون في بحار من التخيلات، والاوهام لماض سحيق، مضى، وانقضى، مستعيدين ذكريات الايام الخوالي، التي كانت فيها قريتنا منبعاً للخير، وللبركة، وهي تغص بالمواشي، وقطعان الابقار التي لاحصر لها. سهلها الذهبي، كان ينوء تحت وطأة وفرة المراعي والتي كانت لكثرتها محط انظار المناطق المجاورة، فتجتذبهم، فيقبلون الينا في فصل الربيع من كل عام بقطعان مواشيهم، لتسرح، وترعى ماشاءت في ذلك السهل المخضوضر المرع. عندما جئت، وحططت برحلك بين ظهرانينا لم يكن قد بقي لدينا من متاع الدنيا، سوى بعض الذكريات لماضٍ بعيد، ولى، وأدبر.

ارتال الجراد السوداء، قد اتت على كل سنبلة من سنابل القمح؛ فاحالت حتى سيقانها الى هشيم تذروه الرياح. ومما زاد من عظم الكارثة، ومن وطأة الفجيعة، انقطاع الامطار، وانحباسها عنا، وما صحبت ذلك من هبوب رياح السموم التي التي اودت بالبقية الباقية.

لم يكن أحد من الناس ليعلم كيف ظهرت ؟!.

لقد قيل في حينه إن قلة قليلة منهم كانوا على علم بذلك، غير انهم لم يرتؤوا ان يميطوا اللثام عن ذلك السر، ويفشوه لدى احد.

لحد الآن أراك ماثلاً أمام ناظري، بقامتك الفارعة التي كانت، وكأنها احدى سيقان تلكم الصفصافات الحمر النابتة عل جانبي ذلك النهير الذي يروي بمائه قريتنا. إذ كنت ترتدي ال (الرانك)[٢] وجوغه) ذات اللون الابيض. ملمحك القمحي كان، وكأنه قد استعار لونه من سنابل القمح في ا لبلاد الحارة. عيناك الواسعتان كانتا تشعان بالزرقة اللازوردية[٣] بقدر رقعة السماء المرفوعة فوق قريتنا. كانت ثمة خيوط من خصلات شعرك الذهبي تطل باعناقها من تحت (يشماغك) ذات الشرابات المتدلية كمثل قوس قزح مابعد الامطار. لست انسى ماحييت ـ ذلك اليوم الذي اجتمعت فيه بنا، تحثنا على ان ندع الكسل، والخمول جانباً، وان نشمر عن سواعد الجد. كنت تعلمنا، كيف نتعاون، فيما بيننا وكيف نتآزر:

ان احببتم الازهار لقريتكم، لتصبح في مصاف القرى النموذجية، المبثوثة على وجه هذه البسيطة إذن، عليكم ان تكونوا يداً واحدة، وقلباً واحدا. ينبغي ان تتخلوا عن هذا الخمول، وعن الانانية، والاثرة التي تأخذ برقابكم، وتعشش في نفوسكم، واجسادكم. قلة قليلة من الاشخاص كانوا مقتنعين بآرائك، حيث يعيرونها آذاناً صاغية، ولكن الكثرة الكاثرة منهم على النقيض ـ فقد كانت تتوجس منك خيفة، ولا تريد ان تتفهم مقصدك، فكانت توجه اليك اصابع الاتهام قائلة :ـ

إن هذا الرجل لمندس بيننا، يبتغي إثارة الفتنة، لينغص علينا عيشتنا، ويشوه ما توارثناه من عادات، ومن تقاليد كابراً عن كابر من قديم الزمان، وان يقلبها راساً على عقب. هذا انسان مخادع. كل همه هو ان يملأ جيوبه على حسابنا.

واذ كانت تقرع هذه الاقوال مسامعك، ساعتئذ كانت تلوح على شفتيك ابتسامة حزينة، تطرز اياهما بلوحة كئيبة ...

دعوهم ، وشأنهم .. سوف يشعرون يوماً ما بأخطائهم.

وحيداً، وبمفردك. تعاونك تلك القلة القليلة من الذين كانوا معك .. بدأتم بالعمل، دون ان تنتظروا مساعدة من احد ...

كنت ذا دخيلة نقية، ناصعة البياض، انقى، وانصع من لون

تلك الثلوج التي ترصع هامات الجبال .. تحب الجميع، دونما استثناء .. تتأمل فيهم الخير على الدوام .. لكنهم وقفوا حجرة عثرة في طريقك .. وضعوا العراقيل أمام مسيرتك .

ذات مرة وفي غفلة من الزمن وحين جاشت كل تلك الضغائن، والاحقاد، التي كانت تمتلىء بها صدورهم، فطفحت متمثلة في طلقتين طائشتين، اصابتا منك مقتلاً .. واذ سالت دماؤك الزكية، فاختلطت بتراب قريتنا الذهبي، حفرت إذاك في اعماق نفسي صورة دائمية لاغتيال الامنيات العذبة التي كانت تحلم بها قريتنا. نهضت ثانية فكانت احلامك الخضر اشد اخضراراً من تلك الرصاصات الطائشة، واعمق جذوراً. كنت عارفاً بمن كان الاداة في تنفيذ تلك الفعلة النكراء، غير انك آثرت الكتمان، وابيت ان تمد اليه إصبعك بالاتهام :

إن كر الجديدين، ونوائب الدهر، وصروفه، لهي كفيلة بافهامهم، قمينة باقناعهم بالهوة السحيقة المخيفة، التي يسيرون فوقها. وعندما تزل بهم الاقدام يوماً ما عندئذ لامناص، من ان نكون على اتم الاستعداد للاخذ بايديهم، وانقاذهم من المأزق الذي وقعوا فيه .

ايه (لاوه) العزيز .. إن قريتنا هذه، لماذا تتجرد هكذا من الوفاء؟ !. طالما كنت احذرك، واقول بأننا يجب علينا ان نبدأ من دواخل بيوتنا !، أن ننظف قريتنا من شرور الكلاب السائبة. وقتها كنت تضع راحة يدك رابتاً على كتفي، وتجيب :

إن الكلاب في كل زمان، ومكان هي التي تنبح القمر في الليالي التي تكون فيها بدراً، غير انه لم يكف حتى ولا ليلة واحدة عن نثر اشعته الفضية فوق اديم الكون .

أولئك كانوا يجلسون تحت ظلال شجرة التوت، وهم يرشقونك بسهام من الحقد، والضغينة، من عيونهم التي كانت تقدح بالشرر. يسخرون من ذلك العرق المتصبب غزيراً من جبينك. يتقززون من تينك اليدين المفطورتين، ومن قدميك اللتين ادماهما العمل المضني .. لقد دب فيك الذبول وسرى النحول في ثنايا جسدك الغض .

واذ كنت اتفرس في محياك، فان جمرات متقدة من النار كانت تلذع احشائي .. انك حينما اتيتنا لم تكن هكذا !، وانما كنت كمثل لوحة لانظير لها من صور هذه الحياة . في الوقت الذي كنت انت فيه منهمكاً في العمل، مشغولاً من جانبك، كانوا هم يستنشقون السم الزعاف، لينفثوه من ثم لهيباً من النار :

إن لم نبادر الى القضاء عليه، فسوف يسبب في زحزحتنا، ويحيل كل مابذلناه من جهود هباءاً منثورا .

والآن، واذ انظر اليك ، وقد خمدت تلك الابتسامة الوضيئة التي كانت تطرز شفتيك، واذ ارى الى صدرك الوسيع الطافح بالحب، وقد امتلأ بالثقوب، تسيل الدماء من جانبيه آخذة طريقها فوق ذلك السهل المنبسط الاخضر، وحين التفت ثانية الى قريتنا فاراها، وقد استحالت تلك العروس الحسناء المجلوة التي كنت تحلم بها، وانت منطرح خلل ذلك المهرجان تحيط بك هالة من الحسن، والالوان، وقد اغمضت تينك العينين الزرقاوين: تسري في عروقي نيران ملتهبة .

أخي (لاوه) .. لماذا ينبغي ان تعاد هذه الحكاية كل مرة؟ ولماذا كتب علينا ان ندفن بأيدينا احلامنا الخضر؟، ونعود بعد ذلك لنشد رحالنا صوب آفاق من اليأس والقنوط؟.

اياكم من التخاذل .. لاتدعنَّ اليأس يستبد بكم .. وحتى لو مت انا فعليكم ان تستمروا دونما توقف .

من على متن تلك الرابية. حين تجيل بناظريك مستشرفاً قريتنا، تتراءى أمام عينيك البيوت وهي تستلقي على ناصية الجبل، مشرئبة باعناقها الى عنان السماء. أما السهل الذهبي، فانه يملأ عينيك بلونه الاخضر. واذ تلتفت ناحية التلة المقابلة؛ تطالعك شجرة التوت، وقد نشرت اغصانها، فتدلت مع أوراد شقائق النعمان الحمراء، وزهور النرجس، تحتضن جميعها قبراً منفرداً مظللةً اياه بافيائها .

الهامش :

١- (لاوجاك) التي هي عنوان القصة، تأتي علماً للذكور، وتأتي ثانياً بمعنى الفتى الذي يمتاز بالفتوة الحقة، وتحمل معاني النشاط، والشهامة، وحب الناس .. الخ .. وقد ارتايت في ترجمتها المعنى الثاني لان سلوك بطل القصة يشف عن ذلك .

٢- رانك وجوّغة : ثوب من قطعتين ويكون عادة من الصوف، وهو من الثياب الكردية .

٣- اللازوردي اللون الازرق الشفاف .